المكاتبة بينهم وترددت الرسل ولم يرجع الشريف عما هو عليه من الانتماء
الى الامام الناصر لدين الله فاخذ في جمع الجمال ولعز بها لحمل الاثقال والاستشار
ارباب دولته في هذا الخطب الفادح السعادة رأي منهم ثاقب صالح فاجمع
رايهم على حسن النهوض الى ابي عريش لان فيه من المرافق المنيعة على الثبات ما ليس
بهذا الموضع الذي هم فيه من الآبار الكثيرة والمباني الحصينة فقدم الشريف الوزير ليحمل
باهله واثقاله ولما وصل ابا عريش كان من فساد رايه واختلال تدبيره ان منع اهل
المدينة عن الخروج باثقاله وحين وصل الشريف اذن لهم ولكن تفاقمت الحادثة
فعدمت الجمال وتعذر عليهم حمل الامتعة والاثقال وخرجوا بالنفوس والاولاد
وكان هذا هو الارتحال الثاني عن وطنهم في مدة الشريف وفي قدوم الشريف حلب
احترقت عليهم خزانة البارود واخذت النار جماعة من اصحابه وضاقت نفسه من حمل
ذلك ثم اخذ في اعمال مكائد الحرب فجعل من العسكر جزءا وافرا يحمون ولا يصابون
وبقية العسكر معه بالقلعة والدولة المشرقية وصلت عياش بعين مهملة على وزن
بقال لمن يبيع البقل وذلك يوم الثلوث او الاربوع وهو على قدر فرسخين من ابي عريش
مشرقا يميل الى اليمن واضطرب حال الشريف وتقلقل لهجوم هذه الحادثة مع شدة
باسه وجنانه ولما كان بعد شروق الشمس من يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب
اقبل من نحو المشرق يوم مستطير وارتفع بالجو نقع قد اثير فادرع الشريف الحزم
وادرع الصبر للاصطلاء بحر هذا اليوم واخذ هو واهله ضله نحو المشرق لقدر
مد البصر فاذا جيش كثيف قد طبق الارض باطباقه وليس من اطباقه مهذب
كؤوس المنايا مترعة ورؤوس المحن والبلايا محدقة به مطعمه تخيير رأوا الشريف
واصحابه اطلقوا عليهم من ايديهم صواعق محرقة تصك منهم المسامع فكرة الخيل راجعة
وعنانهم من بين ذلك الجيش ما عشيهم وحملة الاجناد المشرقية حملة لم يقم لها احد
وتفرق شمل اهل الجبل واظلم الموضع بالقتام كالليل ولولا كان اعلم الشريف
من المكايد لما عاد منهم من اهل المدينة عائد ومال الجيش المشرقي قبل المدينة
ولا بعد اطلاعهم على ما كان اعمله الشريف في عباتها من المكايد ولو انهم تجاسروا
على الاقدام الى القلعة لتملكوها ولكن سبق القدر بخلاف ذلك وحملت منهم شرذمة
تجاه قبلي القلعة فالتفت عليها المتاريس وهلك منهم جزء وافر ودخل جزء من الجند
المشرقي في البيوت والحوانيت ارادة للنهب وكان من احكام الشريف وعنايته
ان يأمر باحراق البيوت فاحرقت النار منهم خلقا لعدم خبرتهم بالشوارع

فمنهم

ورماهم على الطمع ثم اجتمعوا جميعا في الجانب القبلي واستتروا بانفسهم
وكفت الحرب وروي ان الشريف خرج بعد رجوع الخيل بعد الالتقاء الى
موضع غربي المدينة ولم يرجعوا الى القلعة الا بعد ان تحققوا انهم لم يدخلوها
وكان هذا اليوم يوما مشهودا عظيما كانت صور الرزايا والنوائب ولسفر
الحليم حلمه وكاد ان يجعل الولدان شيبا وروي ان قائما على انه قال لم يكن
في خلدي ان الشريف يتزحزح عن موضعه الذي كان فيه وان ذلك دعا عليه
لما كان تظهره من التمدح بالثبات ولما فزعوا الى ابي عريش قصد الاحتماء سبقنا
الى الاقدام عليهم قال ولم يكن معنا ما نستعين به على ما وقفنا به حكي انهم لم يكن معهم
الا الماء المعروفة من الجهة الذاهبة من الدلو والرشا وكان ما يستقون به
هو المزاود وارشيتهم حبال البيوت التي فتلها ليس بمحكم ولعدم خبرتهم كان اذا
سقط عليهم شيء مما يستقون به لم يمكنهم استخراجه فاجتمع من ذلك في الآبار التي
يستقون منها شيء كثير خرج بعد عنهم ثم ان الطرق كانت مسلمة للشريف وكان لا يدري
يسير الى اي جهة وروي ان بعض اصحاب الشريف كان يلقي الجيف بالليل في الآبار
التي يستقي منها اهل المشرق فيفوح منتنه والنقص من الاموال الى بعض فاستحكمت
الشدة على اهل المشرق وكثرة مكائد الشريف لهم فاخذوا في التوسل للصلح المترتب عليه
سلامتهم وقت الخروج فتبين للشريف ان قد ظهر عليهم فتسمح عن ذلك وتناعطفه
وروي انه طلب بعض امراء السرايا يبقى الديه حديقة فامتنعوا وصمموا على
الارتحال والحرب فاغتنوه عملا بقول القائل
اذا لم يكن الا الاسنة مركبا ... فلا رأي للمضطر الا ركوبها
فلما كانت الليلة الخامسة من دخولهم ليلة الاربوع اخذوا في جمع اثقالهم واكثروا
من الرمي بالبندق ليشتغل عنهم الشريف واصحابه وكانوا في بعد فيه يخرجون
فلما تبين الخيط الابيض من الاسود هدأت الاصوات فاستنكر ذلك الشريف واصحابه
وامر من يتجسس فوجد منازلهم خالية منهم فلما اخبر الشريف المتجسس بالذي رآه
قال الشريف الراي اخذ بالحزم ان يبقى اهل المتاريس بها ويعيد عنهم فروي انه
نهض بنفسه ومعه اهل الخيل وبعض الجند فلما تراءى الجمعان وحق التعارف على الجلعا
راى واصحابه موجالا علم لهم بالسباحة فيه فتقاعسوا وفروا على ادبارهم
والتقطوا المتاع والعاج والقمال ورجعوا مسرورين والمراتيح لعو بستين
وكان ممن تاخر ودبت بالمهلة له القدر فقبض قبل عدد المقتولين من اهل

Copyright © King Saud University